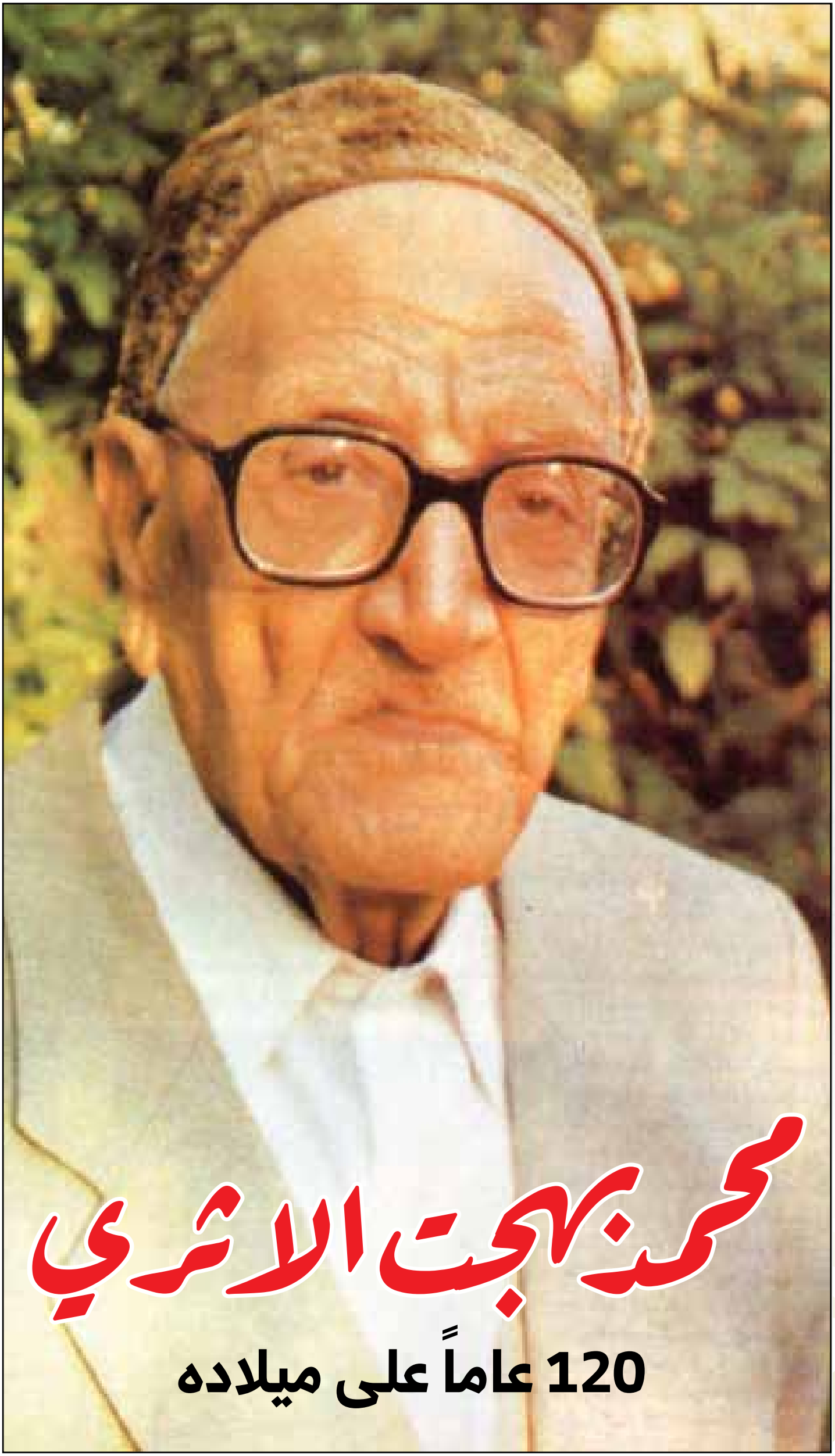

عراقيون

من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة

المدى

للإعلام والثقافة والفنون

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الادارة

رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (5303) السنة العشرون

الخميس (10) تشرين الثاني 2022

محمد بهجت الاثري

120 عاماً على ميلاده

بين الأثري والشاعر الرصافي.. هكذا انقذنا الشاعر الرصافي من الموت!

رسالة نادرة من الأثري للرصافي

إعداد: رفعة عبد الرزاق محمد

كتب الاستاذ الشيخ محمد بهجة الاثري عن صديقه الشاعر الكبير الرصافي استجابة لطلب مجلة (الوادي) البغدادية التي أصدرها الصحفي الرائد خالد الدرة بمناسبة الاحتفال بذكرى الرصافي، فتحدث عن ذكرياته مع الرصافي، ومما ذكره:

كنت أقرض الشعر و انا طالب اتلقى العلم على الاستاذ الرصافي ومربيه الاكبر الامام محمود شكري الآلوسي فنظمت قصيدة رائية ارحب فيها به وكان بين الامام الآلوسي وتلميذه، حيث أعطيتها الى شخص القاها في الحفل بالنيابة عني ولم يعلم احد عن اسم قائلها وقد دفعني شعوري لنظم هذه القصيدة لاكبار ادب الرصافي.

وكنت في قرارة نفسي افتقد الجانب الشعري الذي انزع اليه بطبيعتي فوجدت في شعر الرصافي وشوقي وحافظ ابراهيم والزركلي وامثالهم من حداة الركب العربي الى المجد فتعلقت بحماسيات الرصافي وطنياته كما اكبرت شاعرية شوقي اكبارا لاحد له، ومن هنا نشأت بيني وبين المرحوم الزهاوي خصومة ادبية اذ وجدته يتحامل على هذين الشاعرين تحاملا لا مسوغ له ولا سيما من مثله فدخلت معه في سلسلة طويلة من المناقشات الادبية كان ميدانها جريدتي العاصمة والعراق وكان ذلك دفاعا عن شعر شوقي وقد ساء الزهاوي موقفي وموقف جريدة العاصمة لصاحبها الاستاذ حسن غصيبة وكان الاستاذ ابراهيم صالح شكر يكتب فيها فهاجمنا جميعا بقصيدته:

ملؤا صدور الصحف حقدا والحقد قد سموه نقدا

فناقضتها فورا بقصيدة تسامع بها الادباء ولم ابح لنفسي نشرها لانها كانت قاسية ومطلعها:

يا شاعرا قد ساء قصدا واني لعمر الله ادا

وانتهى خبرها الى المرحوم الرصافي فاحب سماعها مني فلما انشدتها اياه طرب لها ولم يخف انكاره لمسلك الزهاوي في الاستخفاف بالادباء والشعراء وشجعني على المضي في الشعر.

وكان الرصافي لا يحب من الزهاوي دعواه وحبه للظهور ويجد في ذلك منافسة له تحد من مكانته فكان يسره ان تضعف مكانة الزهاوي ولكنه لا يطلب بلسانه من احد ولا اسمعه يذكره بسوء.

وكانت الايام تباعد بيننا تارة وتقرب اخرى فكنا احيانا، نفترق على خلاف وقد يبلغ بنا احيانا الى حد الجفوة فاذا التقينا في طريق فلا اسلم عليه ولا يسلم علي ولكنا مع ذلك يحترم احدنا الاخر، وقد اتفق ان هاجمته مرة في جريدة الاستقلال بمقال مسهب في بعض الموضوعات الاجتماعية لم اخرج فيه عن حدود الذوق والادب كعادتي فيما اكتب. وكان الرصافي يومئذ يصدر جريدة الامل ولي في هذه الجريدة من قبل بعض الآثار الادبية ومنها تحيتي الشعرية لثورة عبد الكريم الريفي فكتب الرصافي كلمة عتاب رقيقة لم ينس فيها سورة غضبه والاشادة بي والاشارة الى لحمة الادب التي تجمع بيننا وما يتوقعه لي من مستقبل زاهر ثم لا ادري من بعد كيف التقينا على وفاق؟

واعتقد ان مرد ذلك فيما بيننا الى روح الاستاذية التي جمعتنا وجعلت منا اخوي مدرسة واحدة اذا باعدت بينهما بعض الآراء فتأبى طبيعتها الا ان يبقيا وفيين لمدرستهما الاولى واصولها التي جمعت بين قلبيهما. وكنا في مصر حين بدأ نوع من التقارب بين البلاد العربية ورأت السياسة يومئذ ان تستقدم اناسا من مصر يذيعون المودة بين البلدين وان توفد بعوثا عراقية الى البلاد العربية لتوثيق الآواصر وقد وقع الاختيار علي يومئذ من قبل الوزارة الهاشمية ان اقوم بقسطي من ذلك في الجانب العربي الاسلامي وان اشارك في عدة وفود اوفدتها الحكومات وكان في بعضها الاستاذ الرصافي. وكان الوفد الذي اشترك فيه الرصافي هو الوفد النيابي ولكن هذا الوفد لا يمثل النواب ولكن يمثل اخلاطا من الموظفين وبعض الوجوه ونفر من النواب وكبار الموظفين وكان الرصافي بينهم كالتائه لا يجد طمأنينة الا ان اجتمع به انا وبعض الادباء وكان غاضبا حاقدا متألما.

وعند رجوعنا كان الرصافي سببا في انقاذنا من تيه في بادية الشام قد يكون مؤداه الموت كان الرصافي معنا في السيارة وهي تخب بنا طوال الليل لا تكاد تغمض له جفن وكان جالسا بجواري في السيارة وكان لاينقطع عن التدخين والتطلع الى السماء ولم اشعر الا بصرخة تنطلق من فيه يقول للسائق قف لقد اهلكتنا فوقفت السيارة واستيقظ الركب وطفقوا ينظرون ما الامر وكان الرصافي يراقب سير السيارة واذا هي كانت تسير باتجاه معاكس وقد عرف ذلك من مراقبته للنجوم فلما نزل الركب وتطلعوا ونظروا الى السماء تحققوا صدق كلامه فامر السائق بالاستدارة واخذ يوجهه وجهة العراق حتى انتهى بنا المطاف الى الطريق العام.

م. الوادي لسنة ١٩٥٩ (العدد الخاص بالرصافي)

وكان العلامة محمد بهجة الأثري قد عزم على مبارحة العراق إلى الشام في صيف ١٩٢٥م طلبا للراحة والجمام فكلفه الرصافي أن يراجع صديقه الأديب صلاح اللبابيدي ويستفسر منه عن الديوان ورسالة تمائم التعليم والتربية وما تم من أمرهما وقد صدع الأثري بالأمر وها هو في هذه الرسالة ينهي إلى الرصافي ما توصل من المساعي في هذا الامر. ويبدو أن الرسالة قد وقعت من الرصافي موقعا حسنا واستهوته طلاوة عباراتها الأدبية المنتقاة ونسق خطها الجميل الأنيق فاحتفظ بها طوال حياته، على قلة مبالاته بمثل هذه الأمور، وقد نشرها الباحث العراقي عبد الحميد الرشودي في كتابه رسائل الرصافي". الصادر عن دار المدى.

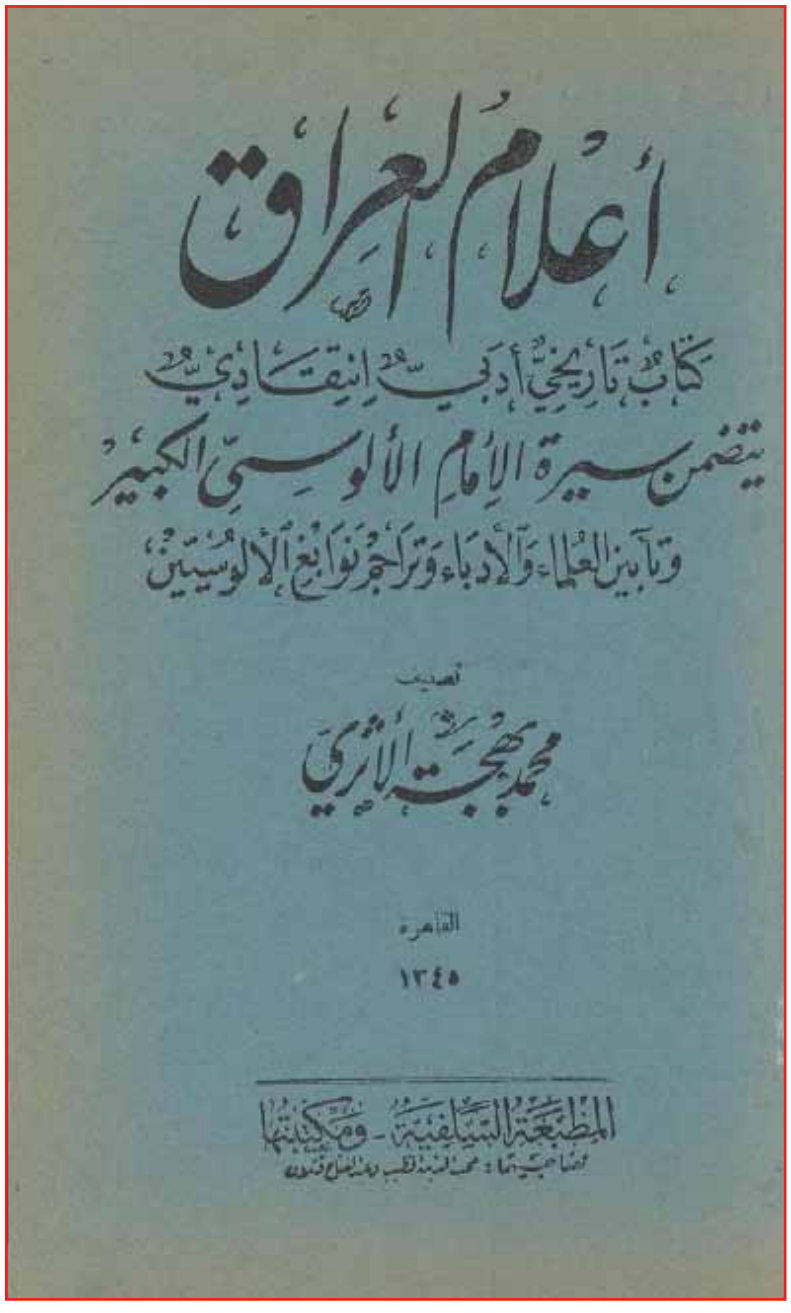

شاعر العرب وشيخ الأدب

أهدي إليك جزيل السلام ووافر الاحترام. وبعد فأنتم أعلم بما يعتور الضارب في الأرض من ضروب المشاغل والمتاعب وبما يشغل أمثالنا من مقابلات واجتماعات حين نحلّ بلدًا كدمشق لنا فيه أصدقاء حفيّون ومحبون مكرّمون.

فأرجو أن تشمل مسامحتكم إبطائي بالكتابة إليكم.

استطعت في أول الأسبوع السالف أن أسافر إلى بيروت لإنتاج مسألة الديوان، فاجتمعت بصاحبكم الأديب اللبابيدي فهشّ للقائي وبش، وأولاني من الحفاوة ما أولى، وأدب لي مأدبة فاخرة حضرها جمع من الأدباء، وأنسني بلطفه وعذب حديثه حتى أخجلني من إفراطه في العذوبة والخصر.

وهو شديد الشوق إلى لقائكم، حفي بالسؤال عنكم وتعرّف أحوالكم، وقد ناولته كتابكم إليه وحدثته في شأن الديوان وقصائد «تمائم التربية» فأتاني في اليوم الثاني إلى «قصر البحر» حيث اختير لي النزول فيه، بالديوان ومعه دراسة للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي، ووعدني بنسخة من «تمائم التربية» وقد نجز طبعها منذ مدة طويلة، وأعد لكم منها "٢٥٠" نسخة، ثم اتفق لي من أحوالي الصحية ما أوجب براحي إلى «زحلة» طلبا للجمام فلم أتمكن من لقائه، ولا هو أنجز الوعد لانشغاله فكلفت بعض من حضر المأدبة من الأدباء أن يأخذ منه نسخة من "التمائم" ويبعث بها إليّ في زحلة، وأرجو أن يفعل.

وقفت في جريدة الفيحاء الدمشقية (ج ١٠٠، ١٠١) على مقالين لهما «ذيل» لم يتم تمامه بعد!! لكاتب متستر باسم "ابن جلا" تهجم فيه عليكم، ولو كان «ابن جلا» حقا لوضع عن وجهه لثامه، وقد نعته صاحب الجريدة بـ«الكاتب العربي الكبير»، وما أرخص الألقاب عند أصحاب الجرائد! وقد زعم أنه «قصد بنقده النزيه خدمة الأدب» وهما غاية في الغثاثة والسخف، قرأناهما في جمع من أدباء دمشق، فأسفنا على الأسفاف الذي هبط إليه الكاتب. وقد تحقق عندي أن هذا الكاتب هو الشيخ جميل الزهاوي، ذلك أن ابن أخيه[٣] كان زارني منذ ستة أشهر في بغداد وطلب مني أن أصغي إلى ماكتب في نقد شعركم ردًا على نقدكم ديوان عمه، فأصغيت إلى ماتلا عليّ (وماهو من قلمه ولكنه من قلم عمه) وناقشته في كثير مما كتب، فقام مغاضبا وولى ولم يعقب، وقد سمعت إذ أنا ببغداد أن الشيخ الزهاوي حاول كثيرا أن تنشر الصحف مقالاته باسم مستعار، فلم يجب طلبه، حتى إذ قدم صاحب جريدة الفيحاء بغداد في هذه الأيام، دفعها إليه مع طائفة من ترجمة الرباعيات الخيامية، فنشرها، ولبيتكم وقفتم على تلك الترجمة الركيكة المهلهلة، ويميننا لو أن الخيَّام كان حيا وقرأها لأقام الدنيا عليه عتابا وإنكارا.

وسلامي على الأستاذ ساطع بك الحصري، والأستاذ أبي قيس ومن يؤم ناديكم من الأصدقاء، ومني إليكم إكرم التحيات.

محمد بهجت الاثري

العالم الموسوعي ومعلم الاجيال ومنقح التراث وفارس اللغة والشعر

سرور ميرزا محمود

زخرت ذاكرة بغداد أسمائهم ومكانتهم وابداعهم، لها الاثر الجلي والمؤثر في مختلف الميادين، بعضها غادر الحياة تاركا وراءه ارثا تنهل منه الأجيال، واعطت حياتهم العلمية والمهنية والاجتماعية وحتى السياسية منارا للأقتداء، نذكر اولئك الاخيار ونتأسى بهم، مما يشكل دفعا معنويا للجيل والاجيال القادمة في مواصلة المسيرة العلمية والمهنية، فيستمر خيرهم زمنا طويلا، فهناك رجال يبقون في ذاكرة الشعوب والأفراد، وقد عرفنا بعض من هؤلاء العلماء، ومنهم العلامة الشيخ محمد بهجت الأثري.

محمد بهجة بن محمود أفندي ابن عبد القادر بن احمد بن محمود، من عائلة معروفة في عالم الاقتصاد والتجارة ولها أملاك وأراضي على امتداد العراق، يعود أصل عائلته إلى منطقة ديار بكر، غادرتها على أثر خلاف مع السلطات باتجاه أربيل، ومنها إلى بغداد حيث استقرت في جانب الرصافة من بغداد، وكان لوالده متجر في شارع المتنبي، ولد لأب عربي وام تركمانية في محلة جديد حسن باشا في جانب الرصافة من قلب بغداد بتأريخ ٢٨|٩| ١٩٠٢م، وكانت أحسن أحياء بغداد، على مقربة من نهر دجلة وجسرها جسر بغداد او جسر الشاعر العربي علي بن الجهم صاحب:

عيون المها بين الرصافة والجسر××× جلبن الهوى من حيث أدري ولا ادري،

ومن المدرسة المستنصرية العباسية المعروفة في التراث العربي الإسلامي، تحيط به المساجد الكبرى والدواوين الرئيسية للحكومة وأسواق التجارة وخاناتها الكبيرة، عاش ايام الطفولة والشباب كما ورد على لسانه:

قد كان من حسن الحظ ان والدي وانا اول اولادة كان حريصا غاية الحرص على تهذيبي وتثقيفي فكان ان اشركني في اعماله،ويجب ان اتعلم اي علم فاستفدت من هذا التوجيه السديد، وساقتني الحياة يمينا وشمالا تارة تاجرا معه وتارة معتنيا بعلم الخيل والفروسية، وقد كان لوالدي اهتمام عريق موروث من ابيه وجدة بالخيل والفروسية وجربت شؤونا مختلفه لا اظنها اتيحت لغيري من طبقتي في العمر والنشاة، وكل ماكان يدور حولي كنت اتامله وبيتنا في وسط حافل بالمدارس بين المساجد والجوامع الضخمة، وكنت اسمع اناء الليل واطراف النهار اسم الله الاعلى تجلجل به الاصوات من الماذن واري الصالحين في حي من علماء ووجهاء وفضلاء لهم السلوك الرفيع والمنزولة الكريمة،هذا ميدان واسع لامجال الان للخوض في اوصافه وموحياته الى العقل والقلب ولكنني استطيع ان اقول كان هذه العوامل كلها وهي غاية في النفس.

تعلم مبادئ القرآن والكتابة على امرأة كانت تعلم الصبيان في حيه ثم قرأ القرآن الكريم في كُتّاب آخر فأتم قرائته وهو ابن ست سنوات وتلقى ثقافته الإبتدائية باللغة التركية وتعلم الفرنسية كما درس في المدارس الرسمية وبعد الإحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٧ تعلم اللغة الإنجليزية على مدرسين مختصين، ثم انصرف إلى التخصص بالعلوم العربية والإسلامية فأخذ عن علماء العراق ولازم خاصة دروس العلامة الأديب الشاعر اللغوي علي علاء الدين الألوسي البغدادي،

بعدها درس على علامة العراق وأديبه السيد محمود شكري الألوسي ولازمه مدة أربع سنوات حتى وفاته، أخذ عنه البحث والتحقيق وطريقة التأليف، لقبه الألوسي بالأثري لشدة ولوعه بالأثر (الحديث الشريف)، واهتمامه بالبحث عن الآثار العلمية واصلها، يذكر أن العلامة الألوسي هو الذي أطلق على الشاعر معروف عبد الغني الجباري " الرصافي" لقبه الذي اشتهر به، حين قال له<<سيكون لك يا معروف شأن فيما بعد، فان كانت الكرخ تفتخر بمعروف الكرخي فما احرى الرصافة ان تفتخر بمعروف الرصافي>>،، على أن صفة الرصافي جاءت من حنكته في رصف العروض والقوافي لنبوغ شاعريته المبكر، وليس من نسبته إلى جانب الرصافة من بغداد، حيث مقام الشاعر ومركز مدرسة الألوسي في جامع الحيدرخانة، وكل من لقبي "الأثري، والرصافي" لم يعرف بهما أحد غيرهما.

درس الأثري النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والأدب والحديث والتفسير والفقه وتاريخ العرب والأنساب والبحث والمناظرة والحكمة والمنطق والهيئة، دخل الرشدية العسكرية فلم تقوَ بنيته على التدريس العسكري فأمضى دور النقاهة مداوماً في محكمة الاستئناف يتدرب على الإنشاء التركي، وأولع من يومه بالشعر والنثر والبحث والنقد والتحقيق والنشر، ولما بلغ العشرين من عمره عين مدرسا، فدرس العربية وآدابها في ثانوية التفيض الاهلية عام(١٩٢٤-١٩٢٥)،

ومدرساً في الثانوية المركزية عام ١٩٢٦م، ثم مفتشا للغة العربية في ديوان المعارف، ودرب على التجارة والفروسية، وترك الوظيفة ليتفرغ للتخصص في العربية وعلومها، مضى في بداية العشرينيات يكتب الفصول الأدبية في الصحف، تولى رئاسة تحرير مجلة البدائع الأسبوعية وجعلها ميدان جهاده الاجتماعي والأدبي، وطفق يبحث عن مخلفات السلف في الأدب واللغة.

عمل معلما في مدرسة التفيض الاهلية عام (١٩٢٤ - ١٩٢٥م) ومدرسا في الثانوية المركزية عام ١٩٢٦م، عين رئيس تشريفات في الديوان الملكي العراقي (أوّل عهد الملك فيصل الأوّل)، وعين مديرا لاوقاف بغداد عام ١٩٣٦م يوم كانت المساجد هي المدارس الشعبية عند العراقيين، ثم مفتشا اختصاصيا للغة العربية والدين حتى عام ١٩٤١م، وفي عام ١٩٤١ أنضم إلى ثورة مايس وساندها بشعره، وبعد فشل الثورة أصدرت الحكومة آنذاك أمراً بفصله واعتقاله جزاء مساندته الثورة، عضو لجنة التأليف والترجمة والنشر في وزارة المعارف عام ١٩٤٤م، تدريس اللغة والأدب وفلسفة علم الكلام لطلبة كلية الشرطة، انتخب عضوا عاملا في المجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٨م ونائبا لرئيسه، نائب رئيس المجمع العلمي العراقي عام١٩٤٩م، عضو في العديد من مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة والمغرب والهند وغيرها.

بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ اختير مديرا عاما للاوقاف، فكانت له أعمال مشهورة في تعمير المساجد، ومنها مسجد ١٤ رمضان الواقع عند نصب الجندي المجهول، والتي تسمى الان ساحة الفردوس، واشرف على اكمال اعماره ومنها استقدامه لأفضل المهندسين وخبراء الزخرفة من المملكة المغربية.

محاضر في عدد من الجامعات العربية والغربية، منها الجامعة الامريكية في بيروت ومعهد الدراسات العليا في القاهرة،عضو كامل العضوية في المجمع العلمي العراقي (١٩٧٩)، وعضوا مشاركا في اكاديمية المملكة المغربية عام ١٩٨٠م، واختير عضوا مؤازرا في مجمع اللغة العربية الاردني عام ١٩٨١، ومَثّل العراق في عدد من المؤتمرات الدولية التي اقيمت في جامعة القرويين في المغرب العربي وجامعة الرياض وجامعة محمد بن سعود الاسلامية واتحاد المجامع العلمية العربية، وشارك في عديد من الندوات العلمية والفكرية داخل القطر وخارجه،ومنح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة بغداد عام ١٩٩٢م.

في عام ١٩٦٣ أحيل على التقاعد، إلا أنه لم ينقطع عن البحث والمشاركة والانتاج العلمي والأدبي المتنوع، فوضع عديد المؤلفات، لم يطبع منها غير القليل.

توفي العلامة محمد بهجة الأثري، رحمه الله، ببغداد في ٢٥-٣-١٩٩٦م/٦-ذو القعدة - ١٤١٦هـ، واقيم مجلس الفاتحة على روحه في في جامع ١٤ رمضان في الجندي المجهول وهو نفس الجامع الذي اشرف على بنائه، وقد أصدر المجمع العلمي العراقي كتاباً تذكارياً في تكريمه والإشادة بجهوده العلمية،ضم عدة بحوث عن سيرته وشعره ومشاركاته العلمية،، وأطلق اسمه على إحدى قاعات المجمع، كما كُتبت عنه أكثر من رسالة جامعية.

كان من أفذاذ علماء العراق في القرن العشرين، الذين نبغوا بعلومهم وآدابهم حتى ذاع صيتهم، عرف عالماً لغوياً وتأريخياً ومحققاً بارعاً، كما عرف شاعراً اصيلاً بروح عربية نابعة من وجدانه الوطني، وله ديوانان ضخمان يشملان قصائد عصماء، جمع مكتبة عامرة وهي من اكبر مكتبات بغداد،هو في فلسفته متفائل وواقعي لأبعد حد، هذه الفلسفة القائمة على التفاؤل والاهام الروحي بالمثابرة لبلوغ الهدف الانساني بالحياة، جسدها، وظف فيها إبداعه الفلسفي في رسم الحياة المعرفية والاجتماعية والتأريخية التراثية منها والشعرية، وهكذا فالحياة في نظر محمد بهجت الاثري موجودة يجدر بالإنسان أن يغتنمها منفتحا على جمالها ومستمتعا بما تقدمه من نعمة خلقها رب الطبيعة.

برع في فن الخط على قاعدة نسن تعليق، وكان خطه أشبه بخط استاذه محمود شكري الألوسي في الرسم والضبط، وله نماذج من خطه في المجمع العلمي العراقي، فهل سلمت عندما استبيحت بعد العدوان فتم سرقة وتخريب ما موجود في تلك المؤسسة العريقة؟، وقد خط وكتب كثيرا من الكتب لنفسه ولأستاذه، نشر بحوثاً ودراسات يقدر عددها ٥٠ في اللغة والتأريخ والحضارة والفكر، له العديد من المؤلفات تصل إلى خمسة وعشرين مؤلفا، كما له تحقيقات لعدد من كتب التراث المهمة للمكتبة الحديثة منها «بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي»، و «أم الرجز للعجلي»، و«كتاب النغم لابن المنجم» و«صورة الأرض للإدريسي» و«فريدة القصر وجريدة العصر» للعماد الاصفهاني "الجزء الخاص بالعراق" مشاركة مع د.جميل سعيد، و«مناقب بغداد لابن الجوزي»، و«أدب الكتابة لأبي بكر المولى»، و«قسم شعراء العراق للعماد الاصفهاني»، <<تحقيق كتاب تاريخ نجد لأستاذه العلامة محمود شكري الآلوسي>> القاهرة ١٩٩٨.، <<تحقيق كتاب تاريخ دمشق- بغداد>>١٩٨٠، <<مصادر تاريخ الجزيرة>> دراسات ج١ ١٩٧٩، <<تحقيق تفسير أرجوزة أبي نؤاس في تقريظ الفضل بن الربيع وزير الرشيد والامين لابن جنّي>> دمشق.١٩٨٠

اما دواوينه الشعرية: الأول: ملاحم وأزهار (١٩٧٤) في القاهرة، والثاني: ديوان الأثري- ج١ (١٩٩٠) عن المجمع العلمي في بغداد، والثالث: ديوان الأثري- ج٢ (١٩٩٦) عن المجمع العلمي في بغداد، اصدر المجمع العلمي العراقي عام (١٩٩٤) لمناسبة بلوغه التسعين كتابا ضمّ دراسات وبحوثا في سيرته وشعره ونشاطاته العلمية، كما أصدر المجمع العلمي كتاباً في تكريمه والإشادة بجهوده العلمية، ولا تزال له مخطوطات وآثار قلمية كثيرة لم تطبع بعد.

العلامة الأثري بين الحداثة والتراث

وديع العبيدي

الاستاذ العلامة محمد بهجة الأثري نموذج للشخصية البغدادية العريقة - الشخصية العراقية الأصيلة- بعمقها التراثي وطابعها الوطني المتسامح الجامع في علاقة عقلانية منسجمة بين التراث والعصرنة، وبين الاعتزاز بالوطنية الصميمة والهوية الثقافية الاجتماعية للعراق. شخصية افتقدناها مع الأيام وتعرضت للاندثار في النقلة الاجتماعية والسياسية العنيفة عقب الحرب العالمية الثانية، والتعبير الفج عن دكتاتورية الحداثة. تلك النقلة المستعجلة العنيفة من الملكية إلى الجمهورية، من التطور التدريجي الهادئ للشخصية الاجتماعية والثقافة الوطنية إلى التقمص السريع لأفكار التحديث والغربنة، ومن الحياة السياسية المشتركة إلى الحزبية الضيّقة المتعسفة والأيديولوجيا السيادية العمياء المنغلقة. وقد وصف عالم الاجتماع العراقي الدكتور علي الوردي تلك الأزمة بعقدة (الأفندية). والأفندي في مفهوم زمنه هو -الحداثي-المتفرنج في ثيابه وسلوكه ولغته. لكن - الأفندية- ما كانت غير حالة متوسطة في الحياة العراقية، ومرحلة انتقالية بين الصورة التراثية والصورة الحديثة للشخصية العراقية. لقد تعايشت الصورة الأفندية والتراثية مع ظهور الدولة العراقية وجهود الملك فيصل الأول [١٩٢١- ١٩٣٣م] لاحلال (السدارة) محلّ غطاء الرأس التقليدي البدوي (العقال واليشماغ). والواقع ان الطبقة المثقفة في العهد الملكي، أي النصف الأول من القرن العشرين كانت ترتدي السدارة باعتبارها رمزا حداثيا، مقابل اليشماغ البدوي أو العمامة الدينية. وكان العلامة الأثري والدكتور علي الوردي والزهاوي والرصافي والحنفي ورجال السياسة يرتدون السدارة، أسوة بالنخبة المثقفة وصورة الشخصية الوطنية العراقية يومذاك. وهي الصفة المميزة للشخصيات السياسية والثقافية والدينية المجددة يومذاك. لكن تلك الصورة تراجعت بعد الجمهورية. وتم اعتبار "السدارة" من رموز العهد – الملكي- البائد.

ليست الثياب والمظهر الخارجي هي صلب الموضوع، وانما الثقافة المتسامحة والعقلية المنفتحة ونبذ التعصب والانغلاق والفوقية. صورة الثياب الحديثة والممارسات السلوكية المنفلتة تجتمع اليوم مع قمة الانغلاق والتعصّب والارتداد الثقافي وسيادة العقلية البدوية الطائفية المتحجرة، والتي تدخل تحت اصطلاح – بدوقراط- من باب آخر. في هذه النقطة حاول البعض وسم العلامة الأثري بالسلفية، في إطار مقاييسات التصنيف الطائفي لعراق الاحتلال والتبعية، وذلك ضدّا لكل تاريخه الشخصي ونشاطه الثقافي واستيعاب رؤاه التجديدية في اللغة والدين والتراث. وهو نعت حديث متأخر، على طريقة الوصفات الجاهزة والأكلات السريعة، وثقافة التهميش والاستئصال الشاعت عقب سقوط الدولة الوطنية. وفي ذلك يقول الباحث الاجتماعي فالح عبد الجبار، أنه (من المفارقة أنها تدعى بالحركة السلفية، وهي صفة مشتقة من السلف الصالح والذين يمثلون رمز الاسلام الأصيل، المعدّ مثالا أعلى خاليا من البدع)/ (كتابه: العمامة والأفندي).

والواقع ان العراق الثقافي منذ القرن الثامن عشر كان وثيق الاتصال والتواصل مع محيطه الثقافي وآفاق الحضارة الحديثة سواء في استامبول أو لبنان أو مصر، ومن الطريف أن تنشر الصحافة العراقية المبكرة قصيدة مواساة للشاعر الشيخ علي الشرقي عن حادث غرق سفينة تيتانك في أيامها الأولى. ولكن ثمة اهمالا متعمدا في دراسة بوادر التجديد والحداثة والعقلنة في الفكر والثقافة العراقية، لصالح تهييج الاتجاهات الأيديولوجية المتطرفة دينيا سياسيا، وبشكل يسهم في تشويه الشخصية الوطنية ومسخها في أسر التخلف والارتداد. وفيما تؤرخ دراسات مرموقة لبوادر النهضة والتجديد والتجدد في مصر ولبنان في القرنين التاسع عشر وبدايات العشرين، يسود تعتيم تام في الحالة العراقية. ومن هنا تظهر المسؤولية الاخلاقية والأكادمية لدراسة الاتجاهات الفكرية وبوادر التحديث والمصادر الأعلام العراقية منذ القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن العشرين، والاهتمام باستخراج الأبحاث والآثار من مظانها ومن أرشيف الأهمال والتغييب سواء في المكتبة الوطنية أو دار الحكمة أو المكتبات الجامعية والأهلية، لكشف الغبار والسخام عن الوجه الحضاري المبكر للعراق، ورفض اعتباره ساحة للتنافر الطائفي والسياسي الرخيص.

وما أحرى العراقي الأصيل المتنور ادراك معنى المدرسة العراقية البغدادية العريقة،وأن العلامة محمد بهجة الأثري والشيخ محمد رضا الشبيبي والزهاوي والرصافي والدكتور البصير والعلامة جلال الحنفي وسواهم وصولا الى مدني صالح وهادي العلوي هم امتداد للمدرسة العراقية في التفكير والتجديد واتباع مذهب العقل والعصر، وما يحدث اليوم هو تدمير شامل للعقلية والهوية والشخصية والوطنية العراقية، بل ان ما يحصل هو صراع داخلي بين استعادة الشخصية الوطنية العراقية بتسامحها الاجتماعي وانفتاحها الثقافي، ذات الارث الملكي، ومحاولة الخطاب الطائفي السلطوي مسخ المجتمع وفق رؤيته الايديولوجية الضيّقة. وفي هذه النقطة، تعود خطورة استخدام البعد الطائفي (الأغلبوية) وسيلة لمسخ المشهد الاجتماعي والثقافي العراقي. تلك الحادثة العرضية في سيرورة البلاط الملكي، باسم الشعر، تحولت إلى خطاب سائد بعد سقوط الدولة (٢٠٠٣م)،وليس سقوط الملكية (١٩٥٨م) فحسب!.

المشاركات الحيّة و ترجمة الفكر في الواقع..

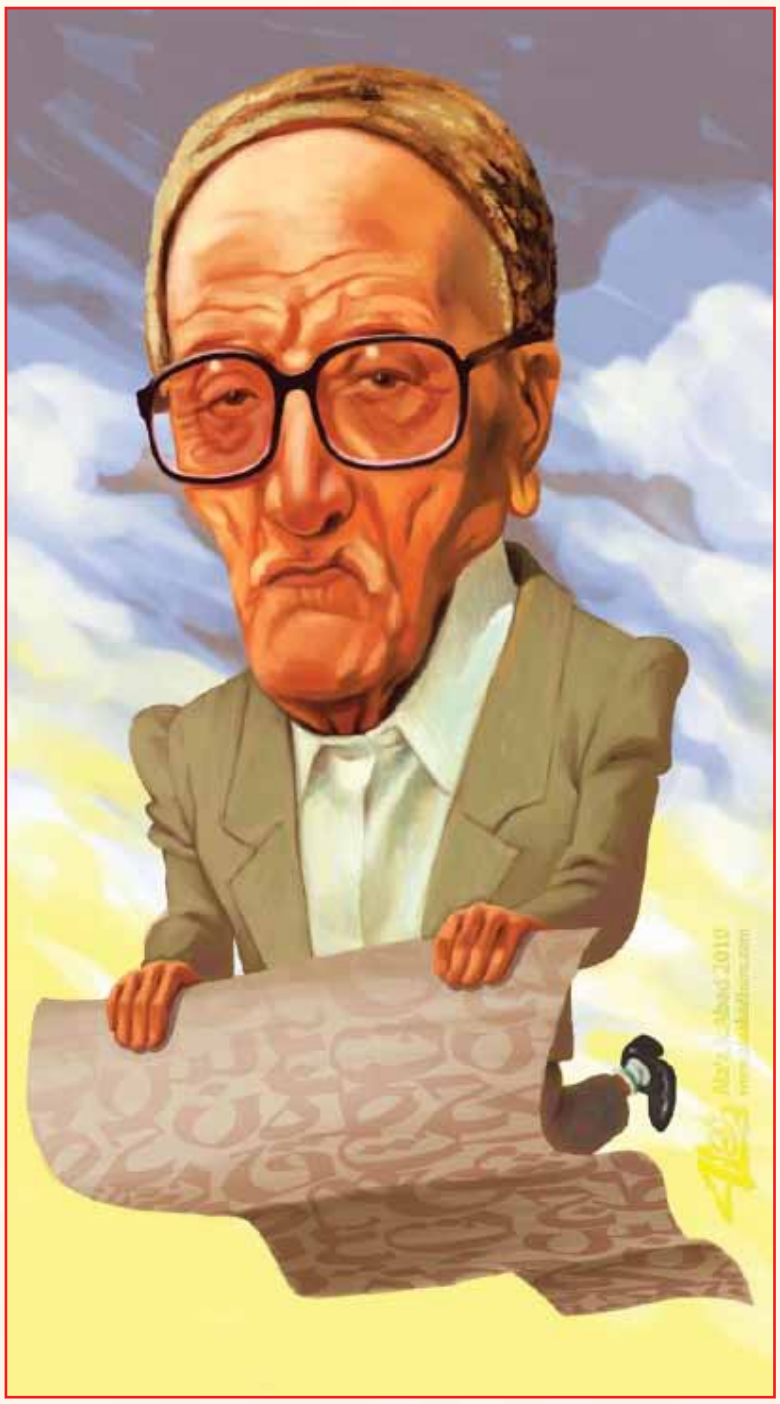

تميّز الأثري بمشاركة مباشرة في الحياة العامة، الثقافية والسياسية، منها استجابته لدعوة الملك فيصل الأول ووقوفه إلى جانبه في بناء الدولة العراقية، ومشاركته في حفل استقبال فيلسوف الهند رابندرانت طاغور لدى زيارته العراق في الثلاثينيات، وتأبيّده حركة ١٩٤١ الوطنية التحررية، وقد حكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات بسببها. وعندما تعرض الصحفي قاسم حمودي - رئيس تحرير جريدة الاستقلال- للسجن لمدة عام بسبب نشر جريدته قصيدة بعنوان (صنم العبودية) لصاحبها صقر (اسم رمزي لشاعرها عبد الحسن زلزلة دكتور الاقتصاد والأمين العام المساعد للجامعة العربية لاحقا)، كان العلامة الشاعر الأثري أحد المنافحين عنه، فتراجعت المحكمة عن قرارها وافرج عن الصحفي بعد انقضاء ثلاثة أشهر على الحكم. يومها أصدر حزب الاستقلال كراسا تضمن وثائق سير الدعوى والافادات المقدمة فيه. هذا الموقف الذي يجمع بين الوطنية وايمانه بحقوق الانسان، يتكرر أيضا في موقفه المنافح عن قضية استقلال الجزائر، كما تعبر عنه واحدة من قصائده التي يخاطب بها فرنسا.. مذكرا بشعارات الثورة الفرنسية التي أسست للدولة الحديثة والحياة العصرية..

باريس يا بنت الحضارة... ليت من ولدتك عاقر..
هل أنت من أحنت على الباستيل واصطلت النوائر؟
وأطحت طاغية الملوك كما يطيح الشاة جازر؟..

وفي صيف ١٩٥١ يدعى للمشاركة في مؤتمر الدراسات العربية في الجامعة الأميركية ببيروت ويلقي فيه محاضرة مهمة بعنوان (الاتجاهات الحديثة في الاسلام) تتضمن قراءة عميقة للتاريخ العربي ورؤيته في المعالجة والتهذيب والتجديد.

وعن تواضعه وسمات شخصيته العلمية ينقل الباحث والمؤرخ سالم الآلوسي قائلا: حضرت معه في الأكادمية المغربية، فخاطبه احد الحاضرين قائلا: يا استاذنا الأثري، أنت فارس المجامع العربية، فاعتذر منه الأثري، واجابه بأنه ليس من طلاب العناوين، وهناك من هو أجدر منه بهذا اللقب!.

وإلى جانب مجالات اللغة والتاريخ ونشاطه في الجامعات ومجامع اللغة العربية، كان موضع تقدير وحفارة الملوك والرؤساء في المغرب والسعودية والعراق. وفي سنواته الأخيرة كان أحد الذين يستانس الرئيس العراقي السابق صدام حسين بالاستماع إليهم من بين العلماء والمفكرين. يذكر ان سكرتير الديوان -يومذاك- حامد يوسف حمادي اتصل به، يبلغه برغبة الرئيس في رؤيته، وان سيارة سوف تحضر لتقله للديوان، فاعتذر بمرضه وتقدمه بالسنّ، وبعد حين عاد واتصل به يخبره أن السيّد الرئيس سيزوره في منزله. ومن الشخصيات العلمية والثقافية الأخرى التي كان الرئيس السابق يستأنس بمجالستها الدكاترة راجي التكريتي وكمال السامرائي ونوري حمودي القيسي. وقد منح جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٩٨٦، جائزة صدام العالمية، كما منحته جامعة بغداد درجة الدكتوراه الفخرية عام ١٩٩٤. وفي تاريخ ١٢/ ١١/ ٢٠١٠ أقامت دار المدى للثقافة والفنون في بنايتها الكائنة في شارع المتنبي احتفالية خاصة عن العلامة الأثري وأبرز آثاره.

من مبحث (الاستاذ العلامة محمد بهجت الأثري.. تجديد الدين وتهذيب التراث)

الأثري يكتب عن نفسه

هكذا كانت دراستي الاولى وتلقيبي بالأثري

قد كان من حسن الحظ ان والدي وانا اول اولادة كان حريصا غاية الحرص على تهذيبي وتثقيفي فكان ان اشركني في اعماله،ويجب ان اتعلم اي علم فاستفدت من هذا التوجيه السديد،وساقتني الحياة يمينا وشمالا تارة تاجرا معه وتارة معتنيا بعلم الخيل والفروسية وقد كان لوالدي اهتمام عريق موروث من ابيه وجدة بالخيل والفروسية وجربت شؤونا مختلفه لا اظنها اتيحت لغيري من طبقتي في العمر والنشاة..
وكل ماكان يدور حولي كنت اتامله وبيتنا في وسط حافل بالمدارس بين المساجد والجوامع الضخمة وكنت اسمع اناء الليل واطراف النهار اسم الله الاعلى تجلجل به الاصوات من الماذن واري الصالحين في حي من علماء ووجهاء وفضلاء لهم السلوك الرفيع والمنزولة الكريمة،هذا ميدان واسع لامجال الان للخوض في اوصافه وموحياته الى العقل والقلب ولكنني استطيع ان اقول كان هذه العوامل كلها وهي غاية في الفسحة والاتساع والعمق قد كان لها الاثر الكبير في توجيهي الى العلم وحب اكتساب المعرفة والادب الرفيع.

وهنا في هذة البيئه اخذت الامور تتطور والاثري يخوض تيارات الحياة:

– وكنت طورا بعد طور بين الدراسة العسكرية والدراسة المدنية وبين دراسة تتصل بقضايا العالم الخارجي ومستلزماته من تعلم اللغات فالممت باطراف من اللغات الانكليزية والفرنسية والتركية في طور النشاة الاولى.

دراستي الاول بدات في الكتاب كتاب الحي.. كتاب امراة فاضلة ثم كتاب يشرف عليه الرجال ودخلت الكتاب في نحو من السنة الرابعة وتاريخ ولادتي هو تاريخ الجسر الذي انشأه نامق باشا والي بغداد

وقبل الحرب العالمية الاولى دخل العلامة الاثري المدرسة الابتدائية وتعلم العلوم بالغة التركية ثم ارتفع الى الرشدية العسكرية وترك المدرسة فيها بسبب تاثير التدريب العنيف لينتسبالى محكمه الاستئناف كاتبا فيتدرب على الانشاء التركي ثم دخل الدرسة السلطانية وهي مدرسة ثانوية وكان فيها من زملائه محمد نجيب الربيعي وخليل اسماعيل والخلاصة في هذة المرحله من التعليم ان الاثري بقي على هذة العجمة او التردد بين العامية والفصحى والتركية والفرنسية والانكليزية والفارسية حتى توجه الى الدراسات العربية الاسلامية في حلقات العلماء يومذاك، الا ان وجد والده وجد ان ابنه لم يحسن قراءة الصحف المحلية

علوم ذلك الزمان وطرق دراستها..

كان هناك بقية من السلف الصالح من علماء بغداد وفي مقدمتهم الاسرة الالوسية التي كانت تتمثل يومئذ في اعظم شخصيتين علميتين وهما: قاضي بغداد العالم الفاضل الاديب اللغوي الشاعر على علاء الدين الالوسي وابن عمه العلامة الامام السيد محمود شكري الالوسي فاتخذت السبيل اول الامر الى السيد محمود شكري فتمنع وقال انني لا ادرس شبانا صغارا ويئست فاتخذت طريقي الى علماء بغداد فلم تعجبني طريقتهم في التدريس اذ وجدتهم يخوضون في متاهات في القال و القيل وما يسميه الازهريون الفنقله ان قيل كذا.. فقيل كذا، ولا يفهمون الطالب الموضوع.. انا كانت نشأتي مدنية خالصة في المدارس المدنية وقد تلقيت فيها فنونا من الاساليب الواضحة ولما جئت الى هذه المدرسة كان اول مابدات قراءته بسم الله الرحمن الرحيم..واذا بالاستاذ ياخذ في اعرابها وياتيني بمصطلحات لا اعقلها فنفرت من تعلم اللغة العربية ووجدتني مما اسمعه منه اتيه في صحراء من الغموض والابهام ولبثت صابرا على هذا النمط من التدريس عاما كاملا فاتخذت طريقي الى العلامة علي علاء الدين رئيس المدرسين عرفته بنفسي ومنشئي ومبلغ ماتعلمته من اللغات والعلوم فارتضاني اولا بان احالني على مدرس من اقاربه كانه اراد ان يتعرف على حقيقتي ودرست على هذا المدرس كتابا في علم الصرف وما لبثت ان قصدته ثانيه فقلت له ياسيدي:انت بغيتي في الاقتباس منك..

وكان قد وثق من هويتي ووجدني على شي من الاستعداد لاتقدم في العلم فرحب بي وبدانا نقرأ من علم الصرف كاتب نزهة الطرف في علم الصرف للميداني صاحب مجمع الامثال ومن كتب الادب مقامات ثناء الالوسي ورحلته غرائب الاغتراب فكنت اقرا عليه هذة الكتب قراءة ضبط واتقان واحفظ النصوص.. وقرات عليه من كتب الفقه الحنفي شرح مراقي الفلاح مع حواشي الطحطاوي.

اما لقب الاثري،وكان من عادتي انني ارجع الى الشروح والتفاصيل قبل لقاء الاستاذ والسماع منه.. فوقعت في هذة الحواشي على عبارة ازعجتني غاية الازعاج تقول العبارة مامعناة: انك اذا عجنت عجينا بماء ثم ظهر لك انه نجس فاما ان تطرح هذا العجين الى كلب واما ان تبيعه لشافعي فقلت له:

يا استاذ ماهذا القول؟ وطبقت الكتاب؟؟ فنظر الى متعجبا وقال لي: ماذا تريد؟ قلت اريد دين رسول الله قال لي:

انت اثري اذن.. فسألته ما الاثري؟ فقال: هو الذي يتبع اثار رسول الله..

ثم اتجهت الى الشعر ولهذا الفن قصة في حياتي، فاقول:

افدت من جملة مادرست على استاذي فنونا من العلم النافع واخذت منه حب العربية وعشق الادب العربيه حيث بدات انظم الشعر فنظمت بضعه ابيات في مدح استاذي، عرضتها عليه في استحياء وادب ولم اكن يومئذ ثقفت شيئا من العروض.. فلما قرأها.. كان الرجل رائع التهذيب.. احسست على وجهه اثر ابتسامة خفيفة يخفيها فادركت من فوري قصوري فيما نظمت وخجلت.. فقال لي: ثابر يافلان ادرس واحفظ هذه الابيات ولاتضيعها.. كانه اردا ان يقول لي: لتعرف من بعد قصورك.. ثم اتاني في اليوم الثاني ببضعه ابيات من شعر يقرظني بها على سبيل التشجيع وطلب مني تشطيرها.. قلت له استاذي ما التشطير؟ فعلمني معناة وطريقة نظمه وابياته هذه قد نشرت في مقدمة احد كتبي.. كانت الابيات جميلة.. وجربت تشطيرها فلم افلح لان مادتي الغالبة عليى هي اللغات الاجنبية التركية والفارسية والفرنسية.. ومادتي في العربية كانت لا تزالقليلة عدا ما طبعه القران الكريم في نفسي من الاحاس اللغوي وما تعلمته اثناء قراءتي القرآن.. من تعلم مخارج الحروف وتجويد الاداء وقد امضيت في اقتباسي من هذا العلامة الاديب سته اشهر تعادل سته اعوام لكثرة ما استفدت منه كما ونوعاً وكان له اعمق الاثر في تربيتي الادبية واللغوية واحساسي الفني.

من كثرة القراءة استقام لي شعر وقد نظمته سليقة قبل ان ادرس علم العروض والقوافي وبعد نحو من عامين احب وزير الاوقاف عبد اللطيف باشا المنديل وكان صديقا لوالدي جمع بينهما حب الخيل والفروسية ان يبعثني الى الازهر ومن غرائب المصادفات اني كنت نظمت قصيدة عينيه في الحنين الى مصر ونشرتها جريدة الاستقلال، وهي اول شعر نشر لي في الصحف وقد ضمنتها شطرا من بيت لشاعر قديم الا ادري من اين وقع الي وهي:

قمر يغيب والف شمس تطلع

فسال عبد اللطيف باشا والدي وقد زرته معه اين يدرس ولدك فقال يدرس على السيد العلامه الالوسي فاكبر شانه ولكنه قال له لماذا لا نرسله الى الازهر ليرى دنيا جديدة ويوسع افق فكره فقال له: الامر لك، غير انني لم اشا الاغتراب عن اهلي وعن بغداد فمكثت ادرس على العلامة الالوسي الى ان ادركته الوفاة.

من أوراق للاثري كان قد اجاب بها الراحل حميد المطبعي ضمن مشروع (الجذور) عن اعلام العراق، وقد التقطنا منها هذه الفقرات.

صفحة مطوية من تاريخ الأدب العراقي

المعارك الأدبية بين الزهاوي والأثري

عمر ماجد السنوي

> كان الأثري في الحادية والعشرين من عمره وكان حديثِ عهد بالدراسات العربية، حين نازلَ الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي ونقدَ شِعرَه ورُؤاه.

لقد كان أول اتصال للأثري بالزهاوي في بداية عهد الاحتلال البريطاني لبغداد، وهو يافع، راه اول مرة في الدورة التعليمية التي استُحدثت لتخريج معلمين للمدارس الابتدائية، وكان الأثري قد دخلها مستمعًا لا يريد التوظف، فحضَر بعض دروس الزهاوي، فوجده يلقي على الطلاب مختارات من الشعر العربي بطريقته الخاصة من التفخيم والمطّ ورفع الصوت، مع القهقهة أحيانًا، ورنوّ عينيه من وراء النظّارة إلى الطلاب وقتًا ما، إظهارًا لاستحسانه الشعر الذي يتلوه عليهم، وقلّما وجده الأثري فسَّر شيئًا من غوامض ألفاظ هذا الشعر ومعانيه، ثم انصرف عنه ولم يعد إليه، ولا يَعرف سببًا لذلك.

وسألَ الأثريُّ والده عن الزهاوي، فاختصرَ له حياته بأنّه من أسرة عراقية محترمة، فيها رجال علم ودين ورجال أدب وشعر. ومِن أبنائها مَن برزوا بالإدارة ونالوا الدرجة الرفيعة في الدولة، وأثنى على والد الزهاوي: الشيخ محمد فيضي أفندي الذي وَليَ إفتاء بغداد بعد شيخه الإمام المفسّر أبي الثناء محمود شهاب الدين الآلوسي، كما أثنى على مَن عَرف من أبنائه، وذكَر منهم صديقه صالح أفندي، والذي أصبح ابنه الشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي صديقًا للأثري من بعد، فقد كات تربه في السنّ، وقد عرف عن هذا الشاعر تقديسه للحق، ومن منطلقه هذا أخذ يفنّد كتاب عمه جميل صدقي الزهاوي: (المجمل مما أرى) في سلسلة مقالات نشرها في الصحف البغدادية أيام أخذ الأثريّ نفسَه بالانتصار لأحمد شوقي، وانتصب لتفنيد نقد الزهاوي لبعض شعره.

ودام اللقاء والنقاش بين الأثري والزهاوي بضع سنين، ثم تصافيا بعد لأي، وأهدى الزهاوي مجموعة دواوينه إلى الأثرّي، وصار الأثري يلقى الزهاوي على الدوام في المكتبة العربية لصاحبها الحاج نعمان الأعظمي، وكانت ملتقى الشعراء والمتأدبين، ثم في مجلس الدفتري أيام الجمعات.

وقد تحدث الأثري عن طبيعة الزهاوي بشيء من النقد قائلًا:

"وجدته حفيًّا بنفسه ومعتدًّا بها وبشعره وفلسفته، يتحدث عنها في شبه حالة طفولية، ويغمز في أثناء أحاديثه الشعراء الكبار، كأنه يقول: أنا وحدي فارس الحلبة وسباقها، وشاعر العصر، وقريع أهل الأوان. ويُحب أن يُذكر دائمًا، فكان في كل يوم ينظم بيتين كيفما اتفقا له، وتنشرهما له جريدة العراق في مكانٍ عالٍ من الصفحة الأولى على حين كان الرصافيّ على النقيض". فقد ذكرَ الأثري أن الرصافي لم يعتد بنفسه في مجالس الأدب، ولا كان يروي شيئًا من شعره في هذه المجالس، وإن لحظ ذلك في أشعاره وهو يفخر بنفسه وبشعره فذلك شيء طبيعي قلّما سَلِم منه شاعر في زماننا ومنهم على وجه التخصيص أحمد شوقي وعبدالمحسن الكاظمي، وهما من عصر الرصافي والزهاوي.

وللأثري عدة مواقف أدبية نقدية خاضها مع الزهاوي، منها: أن إسماعيل صبري باشا -الشاعر المصري- كان قد توفي في آذار ١٩٢٣م، وآلمت وفاتُه صديقَه وصفيَّه وعشيرَه أميرَ الشعراء أحمد شوقي، فرثاه رثاءً حارًّا في قصيدة فائية من الشعر العذب، فسارت القصيدة في البلاد العربية مسير الشمس، ونشرتها الصحف العربية ومنها صحف العراق، فاستبدّت بإعجاب الناس كعادتهم في الإعجاب بشعر هذا الشاعر العظيم في تلك الحقبة، إلا أن الشاعر جميل صدقي الزهاوي -كما يقول الأثري- أبت عليه منافسته إلا أن يحاول إسقاطها من أعين الناس، مع أنه من المعجبين بها كذلك في باطنه، فنشر في جريدة العراق أربع مقالات في نقدها نقدًا نحويًّا ولغويًّا بتوقيع (ناقد!).

وسرعان ما اكتشف الأثري أن هذا الناقد هو الشاعر الزهاوي، وأيد الواقعُ أنه هو لا غيره، ثمّ قفّى على ذلك فنشرَ باسمه الصريح قصيدة على وزن قصيدة أحمد شوقي ورويها في رثاء إسماعيل صبري باشا هذا، على سبيل المباراة! يقول فيها الأثري: "إنها دون قصيدة شوقي بمراحل، وفي حسبانه أنه جلّى عليه وتقدّمه، ولن تكون النائحة المستأجرة كالثكلى". ويؤيّد الأثري في هذا كثير من معاصريه.

قرأ الأثري مقالات الزهاوي الأربع، فوجد العلم والإنصاف قد جانبا كاتبها، وكان من المعجبين بروائع أحمد شوقي، فدفعه حب الحقيقة في شوقي إلى أن يفند هذا النقد الذي كتبه الزهاوي، دفاعًا عن الشعر الجميل وانتصافا لصاحبه من ظالمه والمفتئت عليه.

ودفع الأثري نقده إلى جريدة العراق نفسها، فنشرته في سلسلة متتابعة، أزعجت الزهاوي، فاستنصر على الأثري أحدَ أصحابه، فاندفع هذا -ولم يرغب الأثري في ذكر اسمه لأدبه الجم- يكتب في صخب، حتى زعم في محاولة منه لهزيمة الأثري وخذلانه أنّ ما يكتبه الأثري إنما هو من إملاء أستاذه محمود شكري الآلوسي، يقول الأثري: "فما زادني افتراؤه إلا ثقة بنفسي".

ثم يقول الأثري: "كان الزهاوي قد نشر فائيته الركيكة تلك، فانكفأت عليها بالتحليل والنقد وأبلغت النكاية به"، فثقل الأمر على الزهاوي، فتحامَل على نفسه إلى صاحب الجريدة بحَجْب هذه السلسلة عن القرّاء، فرجا رزّوق غنّام من الأثري أن يرحم شيخوخة الزهاوي، فيقف في نقده حيث انتهى؛ فلم يجبه، وخرج بالصمت عن لا ونعم، وتابع الرد عليه في صحيفة العاصمة من الصحف السياسية اليومية، فوسّعت صدرها لما يكتبه الأثري، وطفقت تنشر له ما يكتبه في مناقضة الزهاوي تحت عنوان: (بين أديبين) قطعًا قصارًا؛ فاستشاط الزهاوي من هذا العنوان، اذ كان في نحو السبعين من عمره وقد ذاع صيته، فكيف يقارن بطالب ناشئ في الحادية والعشرين من العمر؟!

وقد بلغت مقالات الأثري في جريدتي العراق والعاصمة نحو ٢٩ مقالة، فيها نبرة الحماسة والكبرياء، وفيها تنبأ الأثري بمستقبله، وفيها مهّد لأن يدخل الحلبة بجدارة اللقب.

وأما الموقف الثاني الذي اشتبك فيه الأثري مع الزهاوي، فهو نقده اقتراح الزهاوي تجريد القصائد من التزام القافية، أو ما أسموه بـ(الشعر المرسل). والقافية عند الأثري هي رنين الإيقاع في الفن الشعري. وحُجة الزهاوي في اقتراحه، أنّ القافية قيد يكبّل الشاعر عن الانطلاق، وكانت

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون

فخري كريم
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

يمكنكم متابعة الموقع الالكتروني
من خلال قراءة QR Code:

www.almadasupplements.com

Email: info@almadapaper.net

طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

حجة الأثري أن آلافًا وآلافًا من الشعراء العرب ملؤوا الدنيا منذ مئات من السنين بآلاف لا تحصى من القصائد الطوال الرنانة التزموا فيها هذه القوافي التي هي رنين الإيقاع الذي ينتهي عنده البيت الشعري، فما قيّدتهم عن الانطلاق ولا شَكَوا منه ضيقًا ولا حرجًا. ثم حجة الأثري أن الزهاوي نفسه عاش عمره ينظم المقطوعات والمطولات المقفاة، ولم يكن بها ضيّقًا ولا عاجزًا.

وقد أرفق الزهاوي اقتراحه هذا بقصيدة (مرسَلة)، وهي في رأي الأثري: "باردة ما لبث الزهاوي نفسه أن ارتدّ عنها، شعورًا منه بتفاهتها". ونشر الزهاوي رأيه في صدر صحيفة المفيد لصاحبها الكاتب السياسي إبراهيم حلمي العمر، وقد طلب العمر من الأثري أن يبعث برأيه إليه في هذه المسألة، فكتب إليه الأثري، ومما كتبه قوله: "إن الشعر فن صعب، لا يقوى عليه إلا من رزقوا الحس الشعري المرهف، وملكوا آلته وأداته من اللغة الواسعة ومَلَكة البيان... وهو ككل الفنون له ضوابط تحكمه، منها القافية التي يراد التخلص منها، وهذه القيود أو الضوابط التي ميزت هذا الضرب من الكلام المتميز، والتي لا يقوى عليها الضعفاء في حبك الشعر أربعة أركان لا بد من توافرها في وقتٍ معًا، وهي: اللغة السليمة الصافية، والمعنى الكريم في الخيال الرفيع، والوزن الذي هو إيقاعٌ نفسيٌّ داخليٌّ يتنوّع بتنوّع الإحساس، والقافية التي هي رنين هذا الإيقاع الذي ينتهي بانتهاء البيت، أمّا اللفظ فهو جسم روحه المعنى، وارتباطه به ارتباط الروح بالجسم، فإذا اعتور أحدهما أقل اختلال، اختلّا كلاهما وخرّا صريعَين، وأما الوزن فهو أعظم أركان الشعر، وهو يستدعي القافية ويجلبها ضرورةً، وليست القافية بالجالبة للمعنى، ولا المعنى بتابع للقافية كما يتوهَّم. فإذا عَري الكلام من أحد هذه الأركان المتلازمة، فلا يُعدّ من الشعر، ولا يكون له أقل وقْع في النفوس، وإن كابر المكابرون، وركبوا رؤوسهم في المماراة".

لكن هل سكتَ الزهاوي عن هذا الذي كتبه الأثري؟ وهل انقطع عن كتابة الشعر المرسل؟ يقول الأثري: "ولم يُثَنِّ الزهاوي على واحدَته الّتي قدّمها نموذجًا خديجًا، وسكتَ إلى أن مات".

ولكنني أرى -كما رأى حميد المطبعي من قبل- أنّ الزهاوي أو غيره من جيله أو من أجيال ماضية أو أجيال آتية لهم الحق في ابتكار ما يرون من شكلية شعرية تنسجم وأذواقهم وقوانينهم المرحلية، فإن نجحوا، فهو خير لتجربة الشعر العربي، وإن أخفقوا فهي تجربة، المهم أن يبقى الشعراء يدافعون عن حرياتهم الإبداعية. ولستُ في هذا القول مدافعًا عن الزهاوي وتجربته البتراء ودوافعه الغامضة.

وحدث موقف ثالث بين الأثري والزهاوي في سنة ١٩٢٧م حول مرثية الزهاوي للزعيم السياسي المصري المشهور سعد زغلول وهي من ١٤ مقطوعة، في كل مقطوعة سبعة أبيات على قافية غير قافية أخواتها، كان الزهاوي أنشدها في حفل التأبين الذي أقيم له ببغداد بعد أربعين يومًا مرّت على وفاته، ونشرتها له بعض الصحف اليومية. وقد وجد الأثري في هذه المرثية من عيوب الصناعة والفن ما يبتدئ بابتدائها ولا ينتهي إلا بانتهائها -على حد قوله-، فكتب في تحليلها مقالًا ونشره في جريدة العالَم العرَبي في ٢٢-١١-١٩٢٧م، ومما قاله في تحليله الذي أقام فيه الزهاوي وأقعده:

"قال الزهاوي في مطلع مرثيته:

مات سعدٌ، فما عسى أن تقولا... فيه حتى تهز جمعًا حفيلا؟

فقد نعى فيه سعدًا إلى الناس بعد أربعين يومًا مضت على وفاته! ولم يَبق مَن لم يبلغه نعيه ولو كان في مطلع الشمس أو مغربها، اللهم إلا مَن كان لا صِلة له بهذا العالم... ثم اضطرب وتحيّر، لا يدري ماذا يقول فيه، فرضي لنفسه أن يصفها بالعجز والعيّ. ثم ذكر في الشطر الثاني أنّ غايته من رثاء سعد هي أن يهزّ الجمع الحفيل الذي يحتفل بتأبينه لا أن يقوم بواجب الوطنية، وهذا كما ترى في منتهى السخف، وفيه من البرودة والفتور ما أربى بهما على بيت أبي العتاهية المضروب به المثل في البرودة، وهو قوله:

مات الخليفة أيها الثقلانِ... فكأنني أفطرت في رمضانِ!

وليته إذ وقع في هذه العيوب المعنوية سلم من عيب آخَر فنّيّ يُسمّى التصريع المعلَّق؛ فإنَ البُلغاء يستحسنون أن يكون كل مصراع في التصريع مستقلًّا بنفسه في فهم معناه، غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه، مع ذكر فاصلة بينهما دالة على انقطاعه عنه، ويستقبحون أن يكون على صفة بيت الشيخ الزهاوي معلّقًا فيه المصراع الثاني بالأول. وهو بعد كل هذا معجب كل الإعجاب بهذا المطلع، أو بالأحرى بالنعي الذي في أوله (مات سعد)، حتى لقد أعاده على المسامع سبع مرّات بلا انقطاع! كأن الناس صم لا يسمعون، أو كأنهم لم يبلغهم نعيه قبل أربعين يومًا من إنشاده هذه "المنظومة"، بل لقد عاد في المقطوعة الثانية فقال في أولها:

جعت مصر بالزعيم الجليل... بابي الشعب كله زغلولِ

وعاد في الثالثة فقال:

فوجئت مصر بالنعي، فكادت... أرضها من هول المصاب تمورُ

وفي الخامسة مرتين:

بين سعد ومصر جد الفراقُ... ليس هذا الفراق مما يطاقُ

مات سعد ولم يمت ذكر سعدٍ... فهو باق له القلوب رواقُ

وفي العاشرة:

استراح الرئيس بعد العراكِ... بعد ضرب صعب وطعن دراكِ

فكأنّ الرجل أصبح ناعية ينعي إلى الناس الأموات بالأُجرة. وقد سمع أن الشاعر في الجاهلية كان إعلانًا لقبيلته، فأحبّ هو أن يكون ناعية لأموات أمّته!

وقال بعد ذلك البيت:

بالرئيس الهمام بالمنقذ الأك...بر للشعب في الزمان الوبيلِ

ثم ناقضه فقال:

ما بلغت المني لمصر ولكن...كنت تمشي على سواء السبيلِ

وكرره أيضًا فقال:

أنت حررت مصر إلا قليلا...آه لو تم ذلك التحرير!

ثم أعاده للمرة الثالثة فقال:

عاقك الموت أن تحقق وعدكْ...غير نزرٍ، وكنت تبذل جهدكْ

فعلى هذا أنّ سعدًا لم ينقذ مصر بعد، بل لم يبلغ المنى لها؛ فأي المعنيين أحق بالاعتبار في نظر الناظم؟ وما وجه الإعجاب بهذا المعنى وإعادته ثلاث مرات؟".

إلى آخر النقد الذي عرّى فيه الأثري مرثية الزهاوي، ليس في شعر المرثية فحسب، وإنما في فكر الزهاوي في هذه المرثية، سياسيًّا واجتماعيًّا أيضًا.

ومن يقرأ تلك الصحافة يومئذٍ يجد معركة الأدباء حامية الوطيس، فيما بينهم وفيما بين أفكارهم، معركة ترتقي إلى مستوى تثبيت القيم النقدية، في كل شيء من هذه القيم، وفي كل شيء من هذه المبادئ التي تحرّض على الوعي الأخلاقي، ولا ريب في أنّ الأثري كان عنوانًا كبيرًا في هذه المعركة، لا يبالي بشيء من قانون وضعي، ولا يثأر، ولا يُبغض ناقدَه أو منقودَه.

عن مدونة (رؤى)

نص نادر

قصيدة الأثري الى العلامة محمد كرد علي

خواطر دمشق

للأستاذ محمد بهجة الأثري

إلى صديقي العلامة الأستاذ محمد كرد على ذكرى احتفائه بالإخاء وتكريمه للصداقة......

مَنْ عَذِيرٌ من الهوى ومُجِيرُ؟... فَضَحَ الشّوْقُ ما أجَنّ الضميرُ
أنا في قبضة الْجمَالِ فخوّدٌ... تَسْتبيني وروضةٌ وغَديرُ
هذه (جِلّقٌ)، تبارَكَ ربي!... بَلَدٌ طيِّب ورَبٌّ غَفُورٌ
الهوى والَهواءُ والجدولُ الرّقِ... رَاقُ والروضُ والسّنا والحورُ
حَيْثما تغتدي فروضٌ أَريضٌ... عَنْبريٌّ الشّذا وماءٌ نَميرُ
وظِلالٌ ممدودةٌ وْهيٌ تَنْدَى... وشعَاعٌ يرفٌ وهْوَ مُنيرُ
مِن سَنَا الشمسِ فوقَها ومن الزّه... ر دنانيرُ عسجدٍ وعَبِيرُ
يُقْتَلُ القَيْظُ في ذراها ولكنْ... في ذَراها يحيا الهوى ويَسُورُ
جئتُ آوى من الَحرُور إليها... وإذا في الحشا يشبُ الَحرُور
أنا منها ومن مَهَاها اللواتي... يتكسّرْنَ رقةً، مسحورُ
كلٌّ بيضاء في لواحظَ سُودٍ... رفّ في خدّها الدمُ المستحيرُ
في قَوَام لَدْنِ المعاطفِ ريّا... نَ وخَصْر من الضّنى يستجيرُ
وصِبا نَاضر الشبابِ غذاه... تَرَفُ العيش والنعيمُ الوثيرُ
وأديمٍ مُنعّمٍ في حَبيرٍ... يوم العينَ ماؤه والحبيرُ
لَمَعا كالسّرابِ شفّ فلم تَدْ... رِ أماءٌ لألأوه أم نورُ
تنفُثُ السحرَ في الخليّ فيشجى... وتثير الهوى به فيثورُ
ولقد زانها النّفُورُ، وحُسْنُ ال... حُسْنِ في الغادة العَرُوُبِ النفورُ
كرّمَ اللهُ وجهَ كلِّ نوار... صانها الطّهْرُ والحياءُ الوَقورُ!
ليَ من هيكلِ الجمالِ المعاني... ولغيْري ألفاظُهُ والقشور!
وطَنُ العُرْب جَنّةٌ و (دِمَشقٌ)... رَفرَف أقدسُ المَطَاف طَهُورُ
شَرقَتْ بالرُّؤى مَسارحُها الخضْ... رُ وَرَوّى نعيمَهُنّ السرور
رُبّ ناد تَخذْتُهُ في الروابي... أقرأُ الحسنَ ثم وَهْوَ سُطُورُ
فعلى (الغوطَتَيْنْ) والشمس تبدو... وعلى (النّيْرَبَيْنْ) وهْيَ تغور
فإذا (جِلّقٌ) رياضاً ودوراً... كالمصابيح حَفّها الديْجُورُ
عالم من زَبَرْجَد طافَ بالدُّ... رّ وأذْكاه بالرُّواءِ النور
ساحرُ المجتلى أطلّ عليه... (قَاسيون) كأنه مذعورُ
يغْرَقُ الحسُّ في سنَاهُ ويفنى... في تهاويل سحرِهِ التفكيرُ
أنا إن أَنْسَ لستُ أنسى ليالي (م)... إذِ البدر ضاحكٌ والثغورُ
وكأنّ الأكوانَ في دافق النُّو... رِ بَحُورٌ قد أغرقتْها بُحورُ!
يمرَحُ القلبُ في سناها كما يَمْ... رَحُ في الماء سابحاً عُصْفورُ
قد تَفَرّدْنَ بالصّباحَةِ لولا... وَجَنَاتٌ نَازَعْنَها ونُحُور!
حبّذا (الشامُ): ماؤها وهواها... وَمَسارِي أنهارها والقُصورُ
وميادين حُسْنِها وهْيَ شتّى... وَمَغاني اللذاتِ وهْيَ كثيرُ
جادَهَا الغَيْثُ من معاهدَ لا اللُّط... فُ عداها ولا النعيمُ الوفيرُ
محسنات الأوقات حتى ضُحاها... وشّحَتْهُ بلطفهِنّ البُكُور
وبنفسي هَديرُ أنهارِها السب... عة دوّامةً عليها الطيور
تتلوّى كالأَيْنِ ريعَ وتَهْتَ... زُّ ارتَعاشاً وترتمي وتمُور
وَهْيَ آناً في السهل تعدو وآناً... في الروابي المُسَلْسَلات تُغيرُ
تَغْمُرُ (الغُوطتيْنْ) بشراً وَزَهْواً... مثلما يغمُرُ النفوسَ الحبُورُ
وغَدَتْ فوْقَهَا الطيورُ تَغَنّي... ربما يُطرب الطيورَ الخريرُ
عشقَتْ لَحنَهَا، وللطير لَحْنٌ... يُسْكِرُ السمعَ جَرْسُهُ المخمورُ
حَيث تغدو يلهيك منهَا سَمَاعٌ... ومن الروض مونقٌ منْضُور
عُرُسٌ قام للطبيعة فيها... يستخفٌ الإنسانَ وَهْوَ وَقُور
تَهْزَجُ الطّيْرُ والأناسيٌّ فيه... ويمور السّنَا ويذكو العَبيرُ
قف تمتّعْ مما تراه قليلاً... وقلقلٌ مما تراه كثير
لَلأنوف الشذا أريجاً، وللسّمْ... عِ الأغاني، وللحاظ البُدُور!

بغداد - محمد بهجة الأثري

مجلة الرسالة، العدد ٢٥٦، في ٣٠ـ ٥ـ ١٩٣٨

عراقيون
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون